صحوة

اميلي نصرالله

أخذتني بيدي، وقادتني إلى غرفة جانبية، ثم أجلستني فوق مقعد مريح، وجلست قبالتي: صديقة الطفولة "مِرسال" الشخصية الثانية في روايتي الأولى "طيور أيلول":

– ماذا كتبت عني؟...

ماذا تعرفين عني؟...

هكذا سألت، دون لفّ ودوران...

حسبتها ناقمة عليّ، وعلى انتهاز القلم، قربي منها، لفضح أسرارٍ كانت تخبئها في ما تدعوه "صناديقنا المقفلة" وتعني بذلك صدور النساء، تطوي أساها، وتُسدل ستائر الذاكرة لتمحو أصوات أمسٍ مضى.

أصابني ارتباك لم أدرِ كيف أداريه بالكلام، فعادت هي تمتشق الكلمات:

– إنك بسذاجة رويتِ ومن بُعد، إذ لم تقفي شاهداً على معاناتي الحقيقية؛ ومن بعدما رحلتُ عنك وعن المكان الأول.

ثم راحت "مِرسال" تروي، وبأسلوب خاص بها، حكاية تلك الفتاة القروية الجميلة الساذجة؛ وكيف قبلت الزواج من غريب في المهجر، حمل أبوه صورته وراح يبحث له عن عروس بين صبايا الضيعة. واختارها، هي، ورضي الوالدان، و"أعطوا قولاً"عليها.

وكنت أعرف الحكاية حتى ذلك الحدّ... لكنها الآن، تغتنم فرصة لقائنا لتستأنف القصّ، وتتابع حواراً توقف قبل نصف قرن:

"الحقيقة أغرب من خيالك، وأبعد من سردِ روائي توكّأ على حب مراهق، وثرثرة الجارات.

نعم رضيت أن يصبح صاحب الصورة، زوجي وشريك عمري، مثلما رويت، تماماً، إذ أعطاني فرصة لأهرب من ضنك العيش، وجَور الأهل. وقد وجدت لديه لطفاً عوّضني من صفات كنت أحلم بها، كلما رسمتُ صورة في خيالي، لفارس الأحلام. لكن القدر أبى إلا أن يتابع سخريته، فقضى عريسي بعد مرور شهرين على زواجنا، بنوبة قلبية لم ترحمه.

أول ما خطر ببالي، هو الرجوع إلى الوطن؛ لكن أباه المتسلّط، والذي يحكم العائلة ومُقدّراتها المالية، حال دون ذلك، وفرض عليّ الزواج من ولده الثاني، بحجة أنه دفع تكاليف سفري إليهم: "لقد دفعنا عنك "الناوْلون" وأهلك لن يستطيعوا وفاءنا الدين" قال.

وماذا تفعل طفلة لم تجاوز السادسة عشرة من عمرها، في بلاد الغربة، وسويداء القلب؟!...
لويتُ عنقي ورضيتُ أن أعيش سنوات القهر والصمت، مع رجل لا يجمعني به سوى سقف البيت الذي يؤوينا. وبرغم ذلك قمت بواجب الأمومة، وحملت أولاده، وأنجبتهم، وهم ثمار نقمة لا ثمار حب.
ويتابع قدري سخريته، فيُصاب زوجي بالكفاف والشلل، وأتحول إلى ممرضة، وخادمة. أولم نُقسم بأننا سنبقى معاً في السرّاء وفي الضرّاء؟
لقد غربت شمس سرّائي قبل أن تُشرق. وعشتُ ولا أزال أعيش في كل لحظة، عتمة "الضراء" بكل ثقلها، ولا أرى أمامي باب نور أو وعداً بالخلاص..."
وحسبتني أقوم بزيارة عادية، إلى أهلي الأحباء، في ديار غربتهم، عندما "استفردتني" "مِرسال" وراحت تصلني بما لا أعرف عنها وهو الوجه الآخر للرواية.